

من الإسلام إلى الإيمان

حقائق تاريخية لمناسبة الصراع مع الإستعمار

في الجزائر

تأليف

العلامة: محب الدين الخطيب



مدير المجلة
عبد الرحمن عيسى

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

الاشتراك السنوي

مليم	
٤٠٠	في وادي النيل
٢٠٠	لطلبة وادي النيل
٣٠٠	للعلماء والمدرسين بالوادي
٥٠٠	خارج الوادي
٣٠٠	للطلبة خارج الوادي
٤٠٠	للعلماء والمدرسين خارج الوادي

الجزء الأول ـ القاهرة في غرة المحرم ١٣٧٧ ـ ٢٨ يوليو ١٩٥٧ ـ المجلد التاسع والعشرون

من الاسلام ... الى الايمان

حقائق تاريخية ، لمناسبة الصراع مع الاستعمار فى الجزائر

كان آخر عهد الناس بالاستعمار الغربى للشرق الإسلامى فى الخمسين سنة الأخيرة التى كنا شهود أحداثها ، أنه كان – كما لا يزال – حريصا على مطاردة الإسلام من بلد إلى بلد ، ومن طبقة من المسلمين إلى طبقة أخرى منهم ، وقد رسم لذلك خططا لا يراها أقل شأنا من خططه السياسية والعسكرية ، وقلما عقد معاهدة مع جهة إسلامية إلا كان للناحية التبشيرية عناية كبرى منه فى صلب تلك المعاهدة أو فى ملاحقها .

لقد رأينا الاستعمار منذ عشرات طويلة من السنين يحشد الجحافل من صنائعه الذين يسمون أنفسهم « مبشرين » على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ، فكانوا فى كثرة عددهم ، وفى تنظيم نشاطهم ، وفى استعدادهم المالى والثقافى ، وفيما يستندون إليه من تأييد إدارى ، وما يعتمدون عليه من حماية سياسية ، كأنهم – وهم فى أوطان المسلمين أو مستعمرات الغربيين – حكومات أخرى من وراء الحكومات ، مستكملة للوسائل والأدوات ، مؤتلفة فى صنوف المهمات وأنواع المسئوليات ، يقدمون عن نتائج نشاطهم السنوى التقارير المسهبة بحساب دقيق هدفه الأول والأخير أن ينسلخ المسلمون عن الإسلام ولو إلى الإلحاد ، فإن تعذر عليهم استمالة الذين شبوا من المسلمين عن الطوق فلا أقل من الاستيلاء على قلوب أبنائهم ، والتحكم فى تكييف نفوس الأطفال وتوجيه عقولهم وثقافتهم ، بما رسم لها من مناهج وأساليب تتنوع وتتجدد بما تقتضيه ظروف الأزمنة والبقاع .

فالإنجليز فى السودان – مثلا – عزلوا منطقة الجنوب عن أمها السودان الشمالية ، ووضعوا مهمة التربية والتعليم للجنوبيين فى أيدى دعاة التنصير من الإنجليز والأمريكيين وغيرهم ، إنجيليين وكاثوليكيين . ومنعوا حتى التجار المسلمين من أن يقيموا شعائر الصلاة فى العراء على مشهد من الناس ، لئلا يدخل الإسلام فى قلوب الذين ما زالوا على الفطرة

من سكان الجنوب فينقلبوا مسلمين . ولا يزال قراء هذه المجلة على ذكر مما نشرناه فى جزء رجب سنة ١٣٧٣ (ص ٨٣٣) من مشاهدات السيد محمد جمال الدين محفوظ فى رحلة قام بها فى الملاكال وجوبا وتوريت وكاتزى إلى حدود بلاد أوغندا .

وكنا نشرنا قبل ذلك فى جزء جمادى الأولى من تلك السنة (ص٦٣٧) شكوى جريدة (التيمس) اللندنية وعويلها من أن الإسلام يتقدم بخطى سريعة فى غرب إفريقية حتى أن بعثات التنصير والأوربيين على السواء ليبدون (قلقا) شديدا مما قد يترتب على انتشار الإسلام فى المنطقة كلها . قالت (التيمس) : « وكان الاعتقاد قديما أن الإسلام هو دين شعوب الصحراء ، وقد يتقدم إلى الحضر ، وما كان أحد يصدق أنه يستطيع أن يخترق المناطق الاستوائية وأن يصل إلى الجنوب كما حدث فى (سيراليون) و (ساحل العاج) و (ساحل الذهب) و (الداهومى) . ويخشى رجال الإدارة على الأخص من أن انتشار الإسلام فى هذه البقاع يتبعه اتصالات بالقاهرة وبالعالم العربى » ... وقالت (التيمس) كذلك « ويختلف الغربيون فى اتجاههم الفكرى نحو مستقبل الإسلام فى إفريقية : فمن قائل إن تقدم الإسلام لن يضر بالمصالح الاستعمارية ما دام يسير فى (الخطوط التى رسمها له الاستعمار) ، بينما يرى آخرون ضرورة (الحد من تقدم الإسلام) عن طريق نشر البدع والخرافات (أى نشر البدع المخالفة لأصل الإسلام ، لإفساده ، وإزالة حقيقة الإسلام عنه ، مع بقاء اسم الإسلام عنوانا له) حتى يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد) .

هذا ما قالته (التيمس) ، وهى على علم تفصيلى بجحافل دعاة التنصير المنتشرين مع الاستعمار فى القاصى والدانى من بلاد المسلمين فى إفريقية وآسيا ، وما يعبثون به من عقائدهم وما يفرضونه عليهم من تعليم استعمارى إن لم ينجح فى تحويلهم عن المسجد إلى الكنيسة ، فلا أقل من أن يبعدهم عن المسجد إلى ناحية الكفر بالله ، والجحود بيوم الدين ، والإلحاد بالأديان كلها .

وأفظع من الكيد الاستعمارى الذى يلقاه الإسلام من الإنجليز وأعوانهم الأمريكيين وغيرهم فى غرب إفريقية ووسطها وشرقها ، الكيد الاستعمارى الذى لقيه من الفرنسيين فى شمال إفريقية ، وعزلهم مناطق البربر عن مناطق العرب ، وتكالب المبشرين من الآباء البيض على أبناء المسلمين البربر لئلا يبقى لهم من الإسلام إلا عنوانه الذى يوشك أن يزول هو كذلك إن لم يتداركهم الله بلطفه ورحمته .

وكان الكاردينال لافيجرى قد أسس لهم بمعونة المرشال ليوتى وأسلافه جيوشا من دعاة التنصير رجالا ونساء فى جميع أنحاء شمال إفريقية . فأقيم لهذا الكردينال تمثال جسيم فى العاصمة التونسية ما زال قائما فى مكانه إلى اليوم جزاء جهوده المتواصلة لهدم الكيان الإسلامى فى ظل الاستعمار الفرنسى . وهذا الكردينال هو نفسه الذى وقف يوم أول يوليه سنة ١٨٨٨ فى كنيسة سان سوليبس بباريس ينكر على الإسلام رحمته بالرقيق ، وتشريعاته الواسعة النطاق لتضييق دائرة الرق فى المجتمع الإنسانى ، والنهوض بمستوى الأرقاء . فخطب خطبة زعم فيها أن الإسلام هو المسئول عن الرق ، واتفق أن كان من شهود هذه الخطبة أحمد شفيق باشا فى أيام شبابه ، فرد عليه بكتاب (الرق فى الإسلام) الذى ألفه بالفرنسية ، وترجمه بالعربية أحمد زكى باشا .

وقد استمر الكيد من الفرنسيين للاسلام فى كل مكان ، ولاسيما فى إفريقية ، إلى أن استصدروا فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ (أى عند مرور قرن على احتلالهم الجزائر) الظهير البربرى الذى عزلوا به مسلمى البربر عن التشريع الإسلامى فى الأحوال الشخصية ، وعن التثقيف الإسلامى والمدارس القرآنية ، ووضع لهم مسيو سوردون Sordon تشريعا تحدث هو عنه فقال : « إن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد البربرية ، فلأصحاب هذه الأسلحة الحق فى اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى البلاد ، ويجب على حكومة المخزن (أى حكومة سلطان المغرب) أن تكون مستعدة لإعطائنا الحرية التامة فى تنظيم البلاد البربرية كما يطيب لنا ، وبالطريقة التى ترضينا . وإذا كانت العادات العرفية البربرية (أى التى كانت للبربر فى زواجهم ومواريثهم قبل إسلامهم) لا مناص لها من الاضمحلال أمام شرع مدون ، فلماذا لا تضمحل أمام شرعنا نحن الفرنسيين ، ألا يمكن أن يتخذ البربر فى يوم من الأيام نفس الشرائع الفرنسية ؟ ولما صدر الظهير البربرى فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ علقت عليه جريدة (الطان) فى عددها الصادر يوم ٢٧ من ذلك الشهر فقالت : « الآن تخلصت قبائل البربر من سلطة الشريعة الإسلامية ، ولقد اتخذت جميع الاحتياطات لحماية المحاكم العرفية الجديدة من تأثيرات السلطة الإدارية الوطنية » .

إن الاستعمار ما كان ليجرؤ على القيام بهذه الغارة الفاجرة على العالم الإسلامى إلا لأن عصور الانحطاط الأخيرة جعلت جماهير المسلمين كبعض الأعراب فى بداية إسلامهم ، وقد تحدث القرآن عن بنى أسد بن خزيمة يوم حسبوا أن مجرد الانتماء منهم إلى الإسلام

يرفع منزلتهم إلى مقامات الإيمان ، فقال الله لهم فيما أنزله على رسوله من سورة الحجرات ١٥ : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » . روى الإمام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء :

(١) الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

و (٢) الذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم .

و (٣) الذى إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل » .

نعم إن الاستعمار ما كان ليجرؤ على القيام بغارته الفاجرة على الإسلام إلا لأنه وجد المسلمين مكتفين من الإسلام باسمه وعنوانه ، متهاونين بتفاصيل شعب الإيمان وتربية أنفسهم عليها ، متخاذلين عن الاستعداد للقيام بأعباء السيادة والسعادة فى أوطانهم ، فكانوا يقولون كما قالت الأعراب من بنى أسد بن خزيمة وهم حديثو عهد بالإسلام : « آمنا » . فقال الله لهم فى سورة الحجرات ١٤ : « لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا » . فالإسلام فى الجمهرة الغالبة من المسلمين عند ما دهمهم الاستعمار كان « جنسية » مقتصرة على شهادة الميلاد أو ما يقوم مقامها ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم . ولو أن شعب الإيمان كلها — مما بثه حامل آخر رسالات الله فى قلوب أصحابه بتوجيهاته المتلاحقة مدة ثلاث وعشرين سنة — كانت متأصلة فى نفوس المسلمين عند ما فوجئوا بالاستعمار الأجنبى ، لاصطدم منهم بقلعة حصينة يتحطم بغيه على جدرانها ، ويتخاذل كيده أمام عزائمها ، ولكافحه المسلمون متعاونين متناصرين دفاعا عن كيانهم خطوة بعد خطوة ، وسنة بعد سنة ، إلى أن ييأس منهم ، وينقلب إلى بلاده بالخزى والفشل الذريع وحسرة الأبد .

الإيمان الإسلامى قوة لا تعدلها قوة ، وقد تمكن الاستعمار من الاستيلاء على بعض بلاد المسلمين بضعفهم لا بقوة الاستعمار ، وإنما كانوا ضعفاء لأنهم كانوا مكتفين من الإسلام باسمه ، ولم يكونوا مؤمنين بمجموع ما يطالبهم بالإيمان به . . .

قبل أن يحتل الاستعمار الفرنسى بلاد الجزائر بخمسين إلى سبعين أو ثمانين سنة ، كان قد نجم فيها شاب مغرور ، ضعيف العقل ، سقيم المعرفة بالإسلام ، تصوف بغير علم ، وتلقف كلمات من بنيات الطريق ، فاخترع لمن حوله طريقة بناها على أنه يلقى

النبي صلى الله عليه وسلم يقظة ، ويتلقى عنه ما يخالف شريعته ، فزاده هذا التصور غرورا إلى غروره ، فصار يقول لأتباعه : « قدماى هاتان على رقبة كل ولى لله من أول إنشاء العالم إلى النفخ فى الصور » ، ويقول لهم : « إن غير النبي قد يكون عنده علم أزيد من النبي » ، ويقول لهم : « كل الشيوخ أخذوا عنى من عصر الصحابة إلى النفخ فى الصور » ويقول لهم : « إن مقامنا عند الله فى الآخرة لا يصله أحد من الأولياء ولا يقاربه ، وإن جميع الأولياء من عصر الصحابة إلى النفخ فى الصور ليس فيهم من يصل إلى مقامنا . . . ولم أقل لكم ذلك حتى سمعته منه صلى الله عليه وسلم تحقيقا » . واخترع لهم صيغة من صيغ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم سماها « صلاة الفاتح لما أغلق » وقال عنها : « إن المرة الواحدة من صلاة الفاتح تعدل من كل تسبيح وقع فى الكون ، ومن كل ذكر ، ومن كل دعاء كبير أو صغير ، ومن القرآن ، ستة آلاف مرة » ، وقال لهم عنها : « من لم يعتقد أن صلاة الفاتح من كلام الله لم يصب الثواب فيها » ، وقال لهم عنها : « نهانى صلى الله عليه وسلم عن التوجه بالأسماء (أى بأسماء الله الحسنى) وأمرنى بالتوجه بصلاة الفاتح لما أغلق » .

إن ضعفاء العقول فى الدنيا والمغرورين والمعتوهين كثيرون ، ويقولون ما يسنح فى خواطرهم . وكان ينبغى لقائل هذا الكلام فى الجزائر قبل أن تصاب بمصيبة الاستعمار الفرنسى أن يوضع فى مستشفى المجاذيب ، أو فى الأقل أن ينبذ ويدعى له بالشفاء . ولكن الانحطاط يومئذ فى الوعى الإسلامى بين الجماهير قد جعل لهذا المعتوه شأنا ، فصار له فى الجزائر أتباع يعدون بالألوف ، ثم كان له مثل ذلك فى المغرب الأقصى وغيرها من أصقاع إفريقية ، ومات بمدينة فاس سنة ١١٩٦ (١٨٨٢ م) عن ٤٦ عاما فقط وهو من أهل الزعامة ، وكلامه هذا تتلقاه الألوف من العامة والمنتسبين إلى العلم بالقبول ، وله إلى هذا اليوم أتباع يعدون بالملايين ، ومنهم دجالون فى مصر والشام وحتى فى ألبانيا التى تعد من أوربا ، وقد استطاع الفرنسيون من قبل أن تدنس أقدامهم أرض الجزائر أن يصطنعوا خلفاء هذا المعتوه من مشايخ السجادة التى أسسها لطريقته فى عين ماضى . وشيوخ هذه السجادة يفتخرون اليوم بأنهم حاربوا الأمير عبد القادر الجزائرى مع الفرنسيين وأنهم كانوا عيون الاستعمار وسماسرته وأعوانه منذ الاحتلال الأول إلى اليوم .

وفى سنة ١٨٧٠ بينما كانت أحذية جنود بسمارك ومولتكه تسحق كبرياء الفرنسيين فى باريس وتطأ رقاب عظمائهم ، كان خلفاء الزاوية التجانية فى الجزائر يعلنون عبوديتهم

للفرنسيين المخذولين ، ويقوم كبيرهم سيدى أحمد التجانى الحفيد بتقديم الشكر - باسم الجزائريين - إلى بقية السيوف من جنود التيرايور الذين سلموا من معركة «ريش-هوفن» ووقعة «ويسانبور» ، فكافأه الكردينال لافيجرى بأن قام بطيلسانه وصلبانه فتولى عقد زواج سيدى أحمد شيخ السجادة على مدام أوريلى بيكار التى بقيت على كاثوليكيتها ، وألفت كتابا عنوانه «أميرة الرمال» تعنى نفسها ، وقد ملأته بالمثالب على مسلمى الجزائر والزاوية التجانية ، وذكرت فيه أن سيدى أحمد هذا إنما تزوجها على يد الكردينال لافيجرى بحسب الطقوس الدينية المسيحية . ولما توفى عنها سيدى أحمد هذا خلفه عليها وعلى السجادة التجانية أخوه سيدى على ، فصاروا يسمونها «زوجة السيدين» ، وقد قضت بين التجانيين بضعا وستين سنة لم تستعمل معهم فيها شيئا من النفاق ولا الرياء ، بل قضت تلك العشرات من السنين كاثوليكية فرنسية لم تغير من كاثوليكيتها وفرنسيتها شيئا . و «الأحباب» التجانيون يتبركون بهذه الدسيسة الشيطانية ويتمسحون بآثارها شابة وعجوزا ، ويتيممون لصلواتهم بالتراب الذى تمشى عليه . وقد قضت «أيم التجانى» الفرنسية شيخوختها فى مزرعة كبرى امتلكتها فى ضواحى مدينة «بلعباس» من أعمال وهران كانت تعيش فيها عيشة المترفين ، وهى تهزأ بهؤلاء الأنعام الذين تنعم بخيراتهم ، وتعبث بدياناتهم ووطنيتهم ، ولم تقطع علاقتها بالزاوية التجانية ، بل ظلت تسيطر عليها وتقبض على أزمتها ، وقد أنعمت عليها الجمهورية الفرنسية بوسام جوقة الشرف ، وقالت عنها فى براءة التوجيه : «إن هذه السيدة قد أدارت الزاوية التجانية الكبرى إدارة حسنة كما تحب فرنسا وترضى ، وساقت إلينا جنودا مجندة من «أحباب» هذه الطريقة ومريديها يجاهدون فى سبيل فرنسا صفا كأنهم بنيان مرصوص» .

وفى ربيع سنة ١٩٣١ (أواخر ذى الحجة ١٣٤٩) قامت بعثة عسكرية فرنسية برئاسة ليوتنان كولونيل سيكونى برحلة فى منطقة الأغواط بالجزائر ، فدعاها شيخ السجادة التجانية فى ذلك الحين - وهو الشيخ سيدى محمد الكبير - لزيارة عين ماضى المركز الرئيسى لطريقتهم . قالت جريدة لاپرس ليبر Lapresse libre الجزائرية فى عددها الصادر يوم السبت ١٦ مايو ١٩٣١ : «وبعد ما تفرج رجال البعثة على مدينة عين ماضى وعلى الزاوية التجانية ، ذهبوا إلى القصر العظيم الذى شيد بإيعاز من السيدة الفرنسية مدام أوريلى التجانى ، وفى ردهات هذا القصر الرائعة الجميلة أقيمت مأدبة فخمة فاخرة لهؤلاء الضباط ولنواب الحكومة العسكرية المحلية بالأغواط ، وفى أثناء شرب الشاى قام حبيبنا حسنى

سى أحمد بن طالب فتلا باسم المرابط سيدى محمد الكبير صاحب السجادة التجانية الكبرى خطبة عميقة مستوعبة للخدمات الجليلة الصالحة التى قامت بها الطائفة التجانية لفرنسا ، وفى سبيل توطيد الاستعمار الفرنسى ، وتسهيل مهمة الاحتلال على الفرنسيين ، وفى إشارات التعقل التى كانت تسديها هذه الطريقة الصوفية لمريديها من « الأحباب » .

ولعل أهم فقرة وردت فى الخطبة قول شيخ السجادة التجانية : « حتى الأراذل والأوباش أعداء فرنسا الذين ينكرون الجميل ، ولا يعترفون لفاضل بفضل ، قد اعترفوا لفرنسا بالمدنية والاستعمار ؛ وبأنها حملت عنا ما كان يثقل كواهلنا من أعباء الملك والسيادة » .

وإلى القراء فقرات من خطبة المرابط سيدى محمد الكبير التجانى يومئذ :

« .. إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا ، ماديا وأدبيا وسياسيا . ولهذا فانى أقول - لا على سبيل المن والافتخار ، ولكن على سبيل الاحتساب والتشرف بالقيام بالواجب - : إن أجدادى قد أحسنوا صنعا فى انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا ، وقبل أن تحتل جيوشها الكريمة ديارنا .

« ففى سنة ١٨٣٨ كان جدى سيدى محمد الصغير (رئيس التجانية يومئذ) قد أظهر شجاعة نادرة فى مقاومة أكبر عدو لفرنسا الأمير عبد القادر الجزائرى . ومع أن هذا العدو قد حاصر بلدتنا (عين ماضى) وشدد عليها الخناق ثمانية أشهر ، فان هذا الحصار انتهى بتسليم فيه شرف لنا نحن المغلوبين ، وليس فيه شرف لأعداء فرنسا الغالبين ، وذلك أن جدى أبى وامتنع أن يرى وجها لأكبر عدو لفرنسا ، فلم يقابل الأمير عبد القادر !

« وفى سنة ١٨٦٤ كان عمى سيدى أحمد (صاحب السجادة التجانية يومئذ) مهد السبيل لجنود الدوك دومال ، وسهل عليهم السير إلى مدينة بسكرة ، وعاونهم على احتلالها .

« وفى سنة ١٨٧٠ حمل سيدى أحمد هذا تشكرات الجزائريين للبقية الباقية من جنود التيرايور الذين سلموا من واقعة « ريش - هوفن » وواقعة « ويسانبور » . ولكى يظهر لفرنسا ولاءه الراسخ وإخلاصه المتين برهن على ارتباطه بفرنسا ارتباطا قلبيا ، فتزوج

بالآنسة أوريلى بيكار ، وبفضل هذه السيدة ـ الذى نعترف به مقرونا بالشكر ـ تطورت منطقة كوردان من أرض صحراوية إلى قصر منيف رائع ، ونظرا لمجهودات مدام أوريلى التجانى المادية والسياسية فان فرنسا الكريمة قد أنعمت عليها بوسام الاحترام من رتبة جوقة الشرف .

« وفى سنة ١٨٨١ كان أحد مقاديمنا سى عبد القادر بن حميدة مات شهيدا (كذا) مع الكولونيل فلاتين ، حيث كان يعاونه على احتلال بعض النواحى الصحراوية .

« وفى سنة ١٨٩٤ طلب منا مسيو جول كومبون والى الجزائر العام يومئذ أن نكتب رسائل توصية ، فكتبنا عدة رسائل ، وأصدرنا عدة أوامر ، إلى أحباب طريقتنا فى بلاد الهكار (التوارق) والسودان (أى السودان الفرنسى) نخبرهم بأن حملة فودولامى الفرنسية هاجمة على بلادهم ، ونأمرهم بأن لا يقابلوها إلا بالسمع والطاعة ، وأن يعاونوها على احتلال تلك البلاد ، وعلى نشر العافية فيها ! ! . .

« وفى ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ أرسل مسيو جونار والى الجزائر العام يومئذ ضابطه المترجم مسيو مرانت مدير الأمور الأهلية بالولاية العامة برسالة إلى والدى المأسوف عليه سيدى البشير ، فأقام عنده فى زاوية كوردان شهرا كاملا لأداء مهمة سياسية ، ولتحرير رسائل وأوامر أمضاها سيدى البشير والدى ، ثم أرسلت هذه الرسائل إلى كبراء مراكش وأعيانها وزعماء تلك البلاد ـ وأكثرهم تجانيون من أحباب طريقتنا ـ تبشرهم بالاستعمار الفرنسى ، وتأمرهم بأن يتقبلوه بالسمع والطاعة وبالاستسلام والخضوع التام ، وأن يحملوا الأمة على ذلك ، وأن يسهلوا على جيوش فرنسا احتلال تلك البلاد .

« وفى سنة ١٩١٣ إجابة لطلب الوالى العام للجزائر أرسلنا بريدا إلى المقدم الكبير للطريقة التجانية فى السنغال سيدى الحاج مالك بن عثمان ساى نأمره بأن يستعمل نفوذنا الدينى الأكبر هنالك فى السودان (أى السودان الفرنسى) لتسهيل مأمورية كلوزيل الوالى العام للجزء الشمالى من إفريقية الغربية (أى ليسهل عليه احتلال واحة شنقيط) .

« وفى الحرب العالمية الأولى أرسلنا ووزعنا فى جميع أقطار شمال إفريقية منشورات برقية وبريدية استنكارا لتدخل الأتراك فى الحرب ضد فرنسا الكريمة وضد حلفائها الكرام ، وأمرنا أحباب طريقتنا بأن يبقوا على عهد فرنسا وعلى ذمتها ومودتها .

« وفى سنة ١٩١٦ – إجابة لطلب المارشال ليوتى عميد فرنسا فى مراكش – كان سيدى على صاحب السجادة قبلى ، كتب ١١٣ رسالة توصية وأرسلها إلى الزعماء الكبار وأعيان المغاربة يأمرهم بإعانة فرنسا فى تحصيل مرغوبها وتوسيع نفوذها ، وذلك بواسطة نفوذهم الدينى .

« وفى سنة ١٩٢٥ (فى أثناء حرب الريف) أرسلت أنا حبيبنا المخلص ومريد طريقتنا ومستشارنا المعتبر حسنى سى أحمد (الذى تلا هذه الخطبة على مسامع الضباط الفرنسيين بلسان سيده وعلى مسمع منه) إلى المغرب الأقصى فقام بدعاية كبرى و(بروپا) غندة واسعة فى حدود منطقة الثوار ، وتمكن من أخذ عناوين الرؤساء والكبراء والأعيان الريفيين والمقاديم وأرباب النفوذ على القبائل الثائرة ، وكتبنا إليهم رسائل نأمرهم فيها بالخضوع والاستسلام لفرنسا ، وقد أرسلنا هذه الرسائل إلى مقدمنا الأكبر فى فاس فبلغها إلى المبعوثة إليهم يدا بيد . . .

« وبالجملة فإن فرنسا ما طلبت من الطائفة التجانية نفوذها الدينى إلا وأسرعنا بكل فرح ونشاط بتلبية طلبها وتحقيق رغائبها ، وذلك كله لأجل عظمة ورفاهية ونخر حبيبتنا فرنسا النبيلة » .

ثم ختم شيخ السجادة التجانية خطبته بالثناء العاطر على الموظفين الفرنسيين ، وعلى الضباط العسكريين واحداً واحداً ، ومدح الوالى يومئذ ووصفه بأنه « المستعمر الأكبر » .

ولما انتهت اعترافات الشيخ التجانى وتبجحه بخياناته وخيانات أسلافه نهض ليوتنان كولونيل سيكونى رئيس البعثة العسكرية وشكر الشيخ وأثنى عليه ثم قال : « من كمال مروءتك وإحسانك يا سيدى الشيخ المرابط أنك لم تذكر ولا نعمة واحدة من النعم التى غمرتنى بها ، فأنت الذى أنجيتنى من التوارق الملثمين وأنقذتنى من أيديهم » .

إن القليل من هذه المخازى الكثيرة كان يكفى لانفضاض مريدى هذه الطريقة الصوفية عن طواغيتها الكبار الذين رضوا لأنفسهم بالعبودية لفرنسا من دون الله ، لو كان هناك وعى إسلامى سليم مؤسس على الإيمان الإسلامى القويم فى مدارس المسلمين ومعاهدهم ومرافقهم وصحفهم وأنديتهم ومنابر مساجدهم وفى سائر مظاهر حياتهم . ومن العجيب أن نرى المستعمرين أيقاظا للتمييز بين أعدائهم وأصدقائهم ، وأن يعرفوا كيف يسلطون المسلمين بعضهم على بعض ، بينما المسلمون لا يميزون بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

ومن الإنصاف لاسم « التجانية » أن نذكر بالرحمة والثناء والتمجيد رجلا عظيما انتسب إليها ، ولكن الله طهره من رجسها ، وهذا الرجل هو الحاج عمر السنغالى ، ابن شيخ مرابط من صلحاء السنغال ولد له فى قرية الفار من مقاطعة ديمار سنة ١٢١٢ هـ (١٧٩٧م) وتربى فى حجر والده على الصلاح والاستقامة والوفاء للاسلام ، ثم قام فى شبابه بأداء فريضة الحج ، وعرج على مصر فى طريق عودته فالتحق بالجامع الأزهر ، وكان ذلك فى مدة مشيخة الشيخ محمد العروسى التى امتدت من سنة ١٢٣٣ إلى وفاته سنة ١٢٤٥ ، فخلفه الشيخ أحمد الدمهوجى سنة ١٢٤٦ فالشيخ حسن العطار الذى بقى شيخا للأزهر إلى سنة ١٢٥٠ ، فى تلك الفترة من حياة الأزهر كان الحاج عمر السنغالى يتضلع فيه من علوم الشريعة الإسلامية وآدابها وسنن الإسلام ، حتى إذا اكتفى من ذلك عاد إلى بلاده ، وظهر فى بورنو سنة ١٢٤٩ أى بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر بثلاث سنوات ، وقد رسم لعمله فى الحياة خطة حكيمة أن يدعو الوثنيين من بنى جلدته إلى الإسلام ليذوقوا ماذاق هو وقومه من حلاوة هذا الدين ، وليروا ما رأى هو ومواطنوه من جمال الإسلام . وآلى على نفسه أن لا يتعرض للاستعماريين الأشرار إلا إذا اعترضوا دعوته ، فيدفعهم بما يندفع به شرهم عن هذه الدعوة . وكان يرى فيما تعلمه فى الأزهر أن أجمل ألوان الإسلام وأحلاها ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون لهم باحسان ، فكانت دعوته سلفية سليمة من الشوائب . وكان أول ميادين دعوته بلاد الهاوسة ، ثم التحق به أخوه أحمدو فانتقلا إلى بلاد فوتا والبامبارة . وفى بلد كنكان من السودان الفرنسى انضم إليه رجل من أهلها اسمه محمدو فتلقى عن الحاج عمر طرق الدعوة ، وأدخل فى الإسلام فرقة الواسوالونكه . وباتساع نطاق الدعوة ظهر لها مقاومون من الوثنيين ، فحشد لهم الحاج عمر جيشا صغيرا من المؤمنين بدعوته تولى به حمايتها . وبغى عليه الفرنسيون فى بلاد غابون من الكونغو الفرنسى فأثار مسلميها عليهم ووطد فى تلك المنطقة دعائم دعوته . وفى سنة ١٢٦٣ عاد إلى نواحى فوتاجون ، وبنى قلعة حصينة فى شمال النيجر من السودان الفرنسى وهزم مقاوميه من وثنيي بارباره فى تومبا هزيمة ساحقة . وفى سنة ١٢٧٠ انتقل إلى نيورو فى شمال السنغال الأعلى واتخذها مقرا له ، ثم استولى على مملكة سيغو ، وعلى بلاد ماسينه . وما زالت دعوته فى انتشار ومملكته فى اتساع إلى أن توفى سنة ١٢٨٢ عن ٧٠ سنة من عمره المبارك وهو فى جهاده مع وثنيي ماسينه ، فخلفه على قيادة هذه الحركة النبيلة اثنان من أتباعه أحدهما ابن أخيه ، فواصلا الدعوة سنين أخرى ، ولو استمر لها

التوفيق لتحولت الوثنية الإفريقية كلها إلى الإسـلام ، لكن احتلال الفرنسيين تمبوكتو في ١٠ ينايرسنة ١٨٩٤ (٣ رجب سنة ١٣١١) حول مجرى التاريخ الإسلامي في إفريقية ، كما تحول قبـل ذلك في أوربا يوم ٨ شعبان سنة ١١٤ بتغلب شارل مارتل على جيوش عبد الرحمن الغافقي في فرنسا (انظر مجلة الأزهر ٢٥ : ٤٥٤ و ٣٦ : ١٠٠ و ٢٢٠) .

أنا أعتقد أن المسلمين إلى خير إذا تولى قيادتهم وتوجيههم مؤمنون صادقون من أهل الخير ، وكما أن الرجل الواحد الصالح ـ كالحاج عمر السنغالي الأزهري ـ يستطيع أن يحيي بالإسلام بلادا غارقـة في ظلمات الوثنية فينتشلها من أعماق الجحيم إلى جنات النعيم ، فإن التهاون في أمر دجال واحد أو معتوه تافه مثل أحمد محمد التجاني قد يؤدي إلى كارثة كبرى كالـكارثة التي وقعت بها الجزائر أيام جهادها بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ، فـكان مضطرا ـ وهو يحارب جيوش الاستعمار الأجنبي بضعـة عشر عاما ـ أن يحمي ظهره من خناجر الذين يخونون الله والإسلام من أصحاب السجادة الشيطانية في عين ماضي ، ومن العجيب أنهم ما زالوا مصرين على خياناتهم من أيام الاحتلال الأولى في الجزائر إلى زمن الاحتلال الآخر في المغرب الأقصى ، ثم إلى جهاد الريف بقيادة الأمير عبـد الـكريم ، وفي كل ملحمة وقعت بين الإســلام وأعدائه . وهؤلاء الخونة يستمدون حياتهم ووجودهم من انخداع الملايين من أتباعهم ، فهم يعتبرون ما عليـه شيوخهم الخونة هو الإسلام ، بل هو منزلة أعلى من منزلة الإسلام ، ولو أن الوعي الإسلامي في الرأي العام الإسـلامي كان سليما كما كان يريده النبي صلى الله عليـه وسلم للمسلمين لافتضح الباطل تحت أضواء الحق ، ولخرس صوت الباطل إذا جلجل الحق بصوته الرهيب ، ولـكانت كلمـة الله هي العليا وكلمة الشيطان وحزبه هي السفلى .

إن اسم « الإسـلام » الذي ينتمي إليـه الآن ويعتز به خمسمائة مليون مسلم في آسيا وإفريقية وغيرهما ، كان يمكن أن تتغير به معالم الإنسانية كلها من الشقاء إلى السعادة لو أن الذين يحملون أمانة هؤلاء المسلمين من علماء وأساتذة مدارس وجامعات ومؤلفين وصحفيين عرفوا قدر الأمانة التي يحملونها ، وكل واحـد منهم اعتبر نفسه مسئولا شخصيا تجاه كل شخص يتصل به في معاهد التعليم أو بين جدران المساجد أو في صفحات الـكتب والصحف ، فيحوله من مسلم تافه إلى مؤمن محمـدي قوي له رسالة سامية في الحياة ، كما تحول أمثال الأعراب من بني أسد بن خزيمة عن أعرابيتهم الشلاء إلى أمثال أهل بدر والمجاهدين مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المواقف التي انتشر بها الإسـلام ، ثم تـكون بهـا هذا العالم الإسلامي .

نريد من أهل القيادة الفكرية في الإسلام أن ينهضوا بالمسلمين من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ، ومن الإسلام بشهادة الميلاد إلى الإيمان الذي يدفع بصاحبه إلى كتائب الجهاد الأدبي والعسكري لإعلاء كلمة الحق والخير .

الإيمان الإسلامي بضع وسبعون شعبة ، وكل فضيلة طلب الإسلام من المسلم أن يتحلى بها ، وأن يدعو الناس إليها ، هي شعبة من شعب الإيمان : فالصدق شعبة من شعب الإيمان الإسلامي ، والذي يعيش كاذبا يعيش ما عاش كذلك كافرا بهذه الشعبة من شعب الإيمان . وإقامة الحق شعبة من شعب الإيمان الإسلامي ، والذي يعيش مماريا في الحق ، ومغالطا للناس فيه ، ومجاملا لأهل الباطل في باطلهم ، يعيش ما عاش كذلك كافرا بهذه الشعبة من شعب الإيمان . والحياء شعبة من شعب الإيمان الإسلامي ، وكان ينبغي أن لا يكون في المسلمين إنسان واحد محروما من هذه الحلية الإنسانية الجميلة . وإن التعاون على الحق والخير شعبة من أعظم شعب الإيمان الإسلامي ، ولو أن المسلمين شاع بينهم خلق التعاون على كل حق وكل خير لتغير بهم مجرى التاريخ .

مهمة قادة الفكر في الإسلام هي التبشير بهذه الشعب من شعب الإيمان الإسلامي ، وأن يحرصوا على بثها في نفوس المسلمين بالحكمة والأساليب الجميلة ، وأن يبدأوا بأنفسهم فيتحلوا بها ، ليرى الناس فيهم جمالها فيكونوا قدوة فيها لأبنائهم في بيوتهم ، ولإخوانهم في مجتمعاتهم ، ولمن يحسن الظن بهم من صغير وكبير .

لا تعرف الإنسانية معنى من معاني الحق ، ولا لونا من ألوان الخير ، إلا وهو جزء من إيماننا نحن المسلمين ، لأن ديننا أمرنا بهذه الأمور الجميلة جملة أو تفصيلا ، وكل شيء أمرنا به ديننا أصبح شعبة من شعب إيماننا ، والعمل به ركن من أركان هذا الإيمان ، فلو ربينا أنفسنا وأبناءنا وعامتنا على ذلك لكنا نحن الناس ، ولما كان في أمم الأرض أمة مرموقة مغبوطة ترفل في حلل القوة العسكرية والعمرانية والخلقية والصناعية كهذه الأمة الإسلامية .

إهمال المسلمين حتى يبقوا محرومين هذه القوة جريمة سنسأل عنها غدا بين يدي الله ، وقبل أن نسأل عنها بين يدي الله سنتحمل جرائرها في مجتمعنا ومستوانا من الكرامة بين الأمم . والنهوض بالمسلمين إلى منازل الإيمان الإسلامي في أيدي قادة الفكر لو عقدوا عزائمهم عليه ، وكل واحد منهم على ثغرة من ثغر الإسلام ، فليحرص على تحصين الثغرة التي هو فيها لئلا يؤتى الإسلام من ناحيته . وبهذا نرتقي من مقام « الإسلام » إلى مقام « الإيمان » . . .

محب الدين الخطيب